مسئولية الرجل

قبل الزواج وبعده

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

لكل منا مسؤوليات فى الحياة ، يحتم عليه واجبه الإنسانى تحمل أعبائها ، والعمل على الوصول بها إلى أعلى درجات السمو والكمال ، حتى يمكنه أن يكون فردا ناجحا يزهو بإنسانيته ، ويفاخر بذاته كعضو عامل فى المجتمع .

" وإن كان لنشأة الإنسان ومقدار ما يحصله من ثقافة وتهذيب أثر كبير فى رسم طريقه فى الحياة ، فللمجهود الشخصى أيضا أعظم الأثر فى تعبيد ذلك الطريق والوصول بصاحبه إلى أعظم درجات المجد والرفعة .

وإنه لمن الظلم أن ننسب عبوس الحظ إلى الرجل الخامل الكسول ، وابتسامته واشراقه إلى النشيط السعيد ، مع أن الحظ براء من هذا الخلط ، فالأقدار تريدنا دائما فى صورة كاملة عظيمة ، ولكنها تترك لنا الاختيار فى اجتياز طريق الحياة ، ولنا بعد ذلك ما نريد . فإما أن نعرف واجباتنا ، ونتقدر مسؤولياتنا فنتحملها بشجاعة وإقدام ونسير بها قدما إلى السعادة والنجاح ، وإما أن نجبن ونتراجع فنرمى بأنفسنا إلى المصير المجهول الحافل بصنوف الشقاء والآلام " .

ومسئولية الحياة رغم صعوبتها لذيذة مشوقة لكل من يعرف جمال اللذة الحقيقية فى الحياة والسعادة الحقيقية هى التى لا يصل الإنسان إليها إلا بعد أن يتحمل فى سبيلها من المشاق ما يتحمل ، وبعد أن يجاهد فى اجتياز عقباتها بصبر وجلد ، حتى إذا ما وصل " فى طريق أحلامه " إلى القمة الزاهرة ، وقف مزهوا رغم ما أصابه من وعثاء الطريق ، لينظر فى اعتداد إلى ثمرة جهوده وقد آتت أكلها . . .

فلولا عذاب الأمل ما استعذنا لذته ، ولولا لذة الألم ما عرفنا يوما سعادة الأمل فى الحياة .

ولعل فى هذه الكلمات البسيطة معنى ظاهرا لما غمض على هؤلاء الذين يتساءلون عما إذا كان الزواج حقا مسؤولية خطيرة ، أو هذا الذى يتساءل كيف أكون رب أسرة ناجحا ؟

إنها ولا شك أسئلة عجيبة من رجال الجيل الحديث ، إن دلت على شيء فعلى عظيم تأثرهم بأقوال بعض هؤلاء الذين لم تؤهلهم طبيعتهم أوميولهم ليكونوا أزواجا ناجحين فى الحياة أوهؤلاء الذين يشعرون بنقص فى ذاتهم يصوّر لهم خطورة الزواج لافتقارهم إلى طبيعة الرجل الكامل فعمدوا إلى تصوير الزواج فى صورة وهمية رهيبة ملأوا بها عقول بعض الناس وشوهوها بسموم أفكارهم وهم فى ذلك يقولون ما قاله ثعالة فى العنقود عند ما عز عليه الوصول إليه.

ولا شك أننا ندرك عظم حاجتنا إلى تفهم التعاليم الزوجية كى نعرف أن الزواج هو عقد قانونى بين رجل وامرأة ، يقوم على صداقة مشتركة بينهما ، ويفرض على كل منهما واجبات ومسئوليات نحو أنفسهما ، ونحو أولادهما ، ونحو الهيئة الاجتماعية أيضا، وهذا العقد لم يعمل لتحقيق رغبات خاصة ، وإنما شرع لوضع أساس بناء العائلات .

ولما كان وجود الأسر المتينة البنيان ضروريا لخير الإنسانية ، وجب على كل فرد أن يساهم فى القيام بنصيبه من هذا الواجب بعد أن يكون قد عرف حقيقة مسؤولياته وماذا يجب عليه أن يفعل فى مختلف أطوار شبابه، حتى إذا وجد أنه قد قام بدوره كاملا فى الحياة، ورأى أنه قد بلغ السن الذى يؤهله للزواج ، أقدم عليه بجرأة واعتداد واثقا أنه سيكون ولا شك رب أسرة محترم يعتد برجولته ، ويزهو بكرامته .

فمسئولياته قبل الزواج تنحصر فى إعداد مستقبله والنضال فى سبيل الوصول إلى طريق النجاح بخطوات واسعة ملموسة ، ناظرا للمستقبل ، وللمستقبل فقط ، حتى يمكنه ذلك أن يرتشف من ينابيع المجد كؤوسا مترعات ، ويواجه تلك الخطوة الجديدة ، خطوة الزواج بما يجب لها من الاحترام والتقدير متخذا للوصول إليها ما يلزم من احتياطات مشرقة للرجولة الحقة .

فيعمل ما استطاع على اختيار شريكة حياته من طبقة تماثل طبقته وذات ثقافة تقل قليلا عن ثقافته أو تماثله . .

وليس معنى هذا أن نتخذ فكرة الزواج سلما لتحقيق المآرب الشخصية ودخول البيوتات ومعرفة أسرار الأسر والتندد بها فى المنتديات بين الأصدقاء والمعارف فإن هذا ولاشك يسيء إلى سمعة الرجل إساءة بالغة ، وينفر الناس منه .

وليس أحقر من رجل يعمد دائما إلى سرد القصص ، كاذبة كانت أم حقيقية عن مغامراته مع الفتيات الساذجات وعن صولاته وجولاته فى ميادين العربدة والمجون .

وبهذه المناسبة أذكر أنى أعرف عائلة لايمضى على أفرادها أسبوع إلا وهم يقيمون الدنيا ويقعدونها ، ويرسلون الدعوات إلى الأهل والمعارف لمشاركتهم فى الذهاب لرؤية

فتاة جديدة لابنهم البكر . وناهيك بما تسدمه بعد عودتهم الفاشلة دائما من مختلف الأقاويل، مدح وقدح ، وإعجاب وسخرية، وشفقة ورثاء ، تتناقل من فم إلى فم، ومن حى إلى حى، حتى تصبح سير العائلات وأخبار الفتيات بين الناس قصصا للثرثرة والأقاويل .

وهذا الأمر زيادة عن أنه شائن وضيع ؛ فهو أيضا يشوه فكرة الزواج عند الشباب ويصورها أمامهم فى صورة مخزية مخالفة للواقع فى كل شىء .

وانى لواثقة من أن مثل هذا الابن بعد أن ألحت عليه فكرة الزواج ، وعاش زمنا يتأمل فى حقائقها ، سوف تدفعه الحياة رغما عنه يوما ما إلى سلوك الطرق الملتوية فى اختيار شريكة حياته ، ولا يبعد أن تكون تلك الفتاة الموعودة أول من يقابلها فى الطريق دون التطلع إلى قيمتها الحقيقية أو مركزها الاجتماعى .

وعند اختيار الزوجة يجب ألا ندع للظواهر الكاذبة كل الأثر فى نفوسنا ، فنغتر بالجمال الخارجى والاناقة المصطنعة ، دون التطلع إلى مايخفيه ذلك الستار الزاهى من حقائق . فكم من جمال ضل الناس مع تياره وغرقوا فى بحاره ، فإذا بهم يصطدمون بما تقع عليه أعينهم من جيف ونتن . وكم من جميلة جعلت — بقبح نفسها — من حياة زوجها مذلة وهوانا .

فالجميلة حقا هى من جمعت إلى جانب تناسب قسماتها جمال النفس وصفاء الروح . ومن أقوال الشاعر جبران فى حقيقة الجمال "إنه فى قلب من يشتاقه أسنى مما هو فى عين من يراه" وهذا لأن جمال المرئيات زائل بزوالها ، أما الجمال الكائن فى دخائل النفوس ، فهو ذاك الذى نشتاقه دائما ولا نعرف ماهيته .

وليس بالعسير على الرجل الناجح أن يجد ضالته المنشودة فى الحياة ، كما أنه ليس بالعسير أيضا أن يكون رب الأسرة موفقا ، إذا أمكنه أن يلم ببعض قواعد الحياة الزوجية السعيدة وهى فى الواقع بسيطة غاية البساطة لاتستحق إلا مجهودا عاديا للعمل بها .

فالرجل كى يوفق فى حياته الزوجية ، عليه أن يعمل قبل كل شىء على الاحتفاظ بمكانته كرب أسرة محترم ، وهذا لن يتوفر له إلا إذا كان مهذبا قوى الشخصية ، يمكنه أن يترك دائما أثرا مشرفا فى قلوب من يرونه ، فلا يكون مهذارا دائم الضحك والعبث ، ولا ماجنا كثير الصخب والمرح ...

والتوسط فى كل شىء جميل ، ولكل شىء وقته الملائم ، وأن يكون مع زوجته كريما فى حزم ، رضى الأخلاق بغير لين أو تهاون ، متسامحا دون إفراط ، يعرف ما يجب أن يقال ومالا يقال ، وما يجب أن يصلح للحياة ومالا يصلح ، يزن دقائق الحياة بميزان العاقل البعيد النظر ، ويقدر أقواله وأفعاله قبل أن يقدم عليها ، وأن يعتقد أنه ليس إلا مرآة

تنعكس على صفحتها شخصية زوجته ، فإن كانت تلك المرآة مصقولة نقية العنصر ، أظهرتها في صورة مشرقة مهذبة ، و إن كانت رخيصة غباء خاصت عليها ظلمة وتشويها .

ومما يخلق أكثر المشاكل العائلية أن يكون الزوج كسولا متبلدا ، إن قضى بعض الوقت بالمنزل فلا عمل له فيه إلا الأكل والنوم ... أو مستهترا يقضى كل أوقاته فى الخارج ولا يزور البيت إلا لماما حين يود أن يملأ جوفه بالطعام .

تلك حالة نلمسها فى أغلب بيوتنا المصرية ، إن دلت على شيء فعلى أن بعض الرجال مازالوا يقدمون على الزواج وهم جاهلون كل الجهل بأبسط واجباته غير مقدرين حقيقة مسئولياته . ولعمرى لا يستحق هؤلاء أن يكونوا أزواجا وآباء ، ولا غرو فى أن تكون حياتهم الزوجية دائما تعسة فاشلة .

فليس رب الأسرة إلا هذا الذى يعرف كيف يكون نوتيا و ربانا يدير دفة أسرته بدقة وحزم و يحافظ عليها من أن تعصف بها الأنواء ، لا ذلك الذى يترك كل شيء للزوجة و يعتمد على مجهودها الفردى . فتنعدم سلطته كزوج وأب ، و يفقد احترامه فى نظر الجميع .

و إن هذا الإهمال من جانب الزوج يشجع الزوجة على إهمال واجباتها نحو منزلها ونحو أبنائها ، هؤلاء الأبناء الذين يشبون فى محيط يتخبط فى ظلمات من سوء التفاهم ، بعيدين عن عناية الأم و يقظة الأب . فتسوء نشأتهم و يتشوه مستقبلهم ، ويكونون نواة فاسدة فى قلب المجتمع .

فرب الأسرة ملزم باستطلاع كل دقائق المنزل والإلمام بكل مايدور فى محيطه يوميا ، وليس فى هذا أى ضياع للوقت كما يتصور بعض الناس ، أو أن فيه خروج من الرجل عن حدود مسؤولياته ، فإشراف الرجل على أسرته واجب كواجب البستانى نحو حديقته ، إن تعهدها بالسقى أينعت ، وإن أهملها جفت وذوت .

و إن المرأة لو علم الناس لمخلوق وادع رقيق فى حالة دائمة إلى مساعدة الرجل وتلقى نصائحه مهما كانت درجة ثقافتها ومعرفتها ، لأنها ليست إلا طفل كبير فى حاجة إلى الرعاية المستمدة ، ومن واجب الرجل أن يشملها بتلك الرعاية وأن يبذل لها النصح والإرشاد من حين إلى حين ، على أن يكون رقيقا فى إبداء تلك النصائح بحيث لا يجرح كبرياءها أو يمس كرامتها .

ولا يحط من قدر الرجل فى عينى زوجته أكثر من أن يعمد إلى تقريعها بكلمات نابية تتعود على تبادلها و إياه على مر الأيام ، وناهيك بما تلوكه ألسنة الخدم من القصص والمبالغات حول هذه الأمور فى الطرق والبيوتات الأخرى .

فالرجل العاقل يمكنه أن يعمل على تكوين شخصية زوجته كما يحب بما يبديه أمامها من عادات وما يظهره فى أقواله من آراء .

وكلما كان الرجل عائليا يميل إلى الحياة الوادعة المستقرة كلما التفت حوله قلوب أفراد أسرته وكانت له بينهم مكانة عظيمة ومحلا ملحوظا يظل شاغرا كلما غاب عنه . ومن الغريب أن يتذرع بعض الرجال فى غيابهم الدائم عن منازلهم بحجة قتل الوقت مع الأصدقاء بلعب الورق والمسامرة ؛ مع أنه فى إمكان الرجل العاقل أن يستعيض دائما بزوجته فى مشاركته سائر ألعابه بالقليل من الإرشادات ، فاذا كان ولا بد من قتل الوقت ، مع أن الوقت هو الذى يقتلنا لا نحن ، فمن اللائق أن يكون ذلك مع الزوجة حيث يكتسب الزوج شريكا مخلصا لا جليسا منافقا ، يتناوله وراء ظهره بالقدح ولاذع الأقاويل .

ولا شك أن هذا الأمر منه سيغمر البيت بالسعادة الدائمة ، ويشيع فى جوه البهجة والسرور ويجعل الزوجة تتفانى فى إرضائه والعمل على إحاطته بكل أسباب الراحة والهناء .

على أن يحاول دائما إبداء إعجابه بما تعمل زوجته ، فيثنى على طريقتها فى تنسيق الأثاث ؛ وانتقاء ألوان الطعام ، واختيار ملابسها وطريقتها فى تصنيف شعرها إلى آخر ما يملأ قلب المرأة سعادة واطمئنانا ، لأن ذلك يشجعها على بذل كل مجهود للوصول بنفسها إلى ما يجب أن تكون عليه المرأة الكاملة ...

ويجب عليه أن لا ينسى ضرورة إهدائها هدية بسيطة فى المناسبات ، تشعرها بمحبته لها واهتمامه بارضائها ، وقد يكون لباقة من الزهر أو كتاب مشوق رغم تفاهة ثمنها أثر جميل فى نفس الزوجة المثقفة .

وإذا مرضت يوما وأقعدها المرض عن أداء واجباته فلا يظهر لها تأففا وامتعاضا ، وليذكر مدى ما كانت تبذله من جهد كى توفر له السعادة والهناء .

وإنى أرى قبل أن أترك هذا الموضوع أن أعرض أيضا لهؤلاء الذين قد سرى فى نفوسهم داء تعدد الزوجات فانساقوا وراء رغباتهم الدنيئة وجشعهم المرذول حتى أصبحوا يرون فى كل زواج جديد هواية مألوفة .

فالواحد منهم يظن أنه بتعدد زوجاته يبحث بينهن عن مثله الأعلى وسعادته المنشودة ومع ذلك فهو خاطىء يموه على نفسه وعلى الناس ، وإنى أبشره بالفشل الذريع وتولى شبح السعادة عنه مهما تلمسه فى ظلماته ، فالنساء جميعهن نساء مهما حاول الرجل تفضيل بعضهن على بعض ؛ وأخلاقه وطباعه معهن هى التى تسعده وتشقيه ، وليس بمستحيل على كل رجل أن يخلق من زوجته نموذجه ووحى آماله .

وتعـدد الزوجات لا يمكن أن يجنى منه الرجل غير الحسرة الدائمة والألم المرير ، فما دام الرجل لا يعرف كيف يسير سفينة حياته بامرأة واحدة فهو بالأحرى سيكون عاجزا عن ذلك مع اثنين أو ثلاث .

وأن هـذا الذى قد جعل الزواج تجارته ، متناسيا كل شعور بانسانيته ، لأولى به أن يكون حيوانا يعيش بين العجماوات .

وانى كواحدة من بنات جنسى أؤكد لكل رجل بان امرأة المزواج لايمكن أن تكون مخلصة له مهما كانت درجة ثقافتها و بيئتها ، وهذه ولا شك مسألة لاتخفى على كل من لديه القليل من الفطنة والذكاء .

وهاأنذا أسوق لكم مثلا بسيطا لجاورناعائلة و بهاذوزوجتين ، أولاهما غير مثقفة ، والأخرى وهى الجديدة ذات ثقافة عالية ، ماذهبت الأولى مرة لطبيب الأسنان إلا وذهبت الثانية لطبيب الأنف والحنجرة ، وما اشترت الثانية ثوبا جديدا إلا ومزقت الأولى أحسن ثيابها وأعطتها للخدم كى يكون لها نصيب الثانية من شراء الثياب ، وناهيك بمايحدث للزوج المسكين إذا أقعده المرض يوما عند إحداهما فلم يذهب إلى الأخرى فى ميعاده المحدد ، وما يتم به من تفضيل إحداهما على الأخرى مما يقيم عليه الدنيا و يقعدها .

ولا يمكنك أن تدخل منزلا كهذا دون أن تتصدع رأسك بمختلف الأقاويل المملة من كل من الزوجتين عن الأخرى ممـا يجعل زيارتهما ممجوجة لاشىء فيها إلا الحديث عن الزوج الأبله الذى وضع نفسه مختارا بين يدى متنافستين قدجعلهما الحقد شيطانتان فتفننتا فى تمزيقه كما شاءت قدرتهما على الكيد والتنمر ...

وما لنا نذهب بعيدا وأمامنا المحاكم الشرعية بمـا تزخر يوميا من قضايا النساء ومشاكلهن العديدة التى يخلقها بعض الرجال بقصر نظرهم وغفلتهم .

إن المجتمع لايطلبّ من الرجل شيئا أكثر من أن يكون رجل ضمير ، رجلا عادلا يدرك مايقتضية العدل والشرف من واجبات ومسئوليات .

ولا شك أن اليوم الذى يستيقظ فيه فى الرجل الضمير ، سيكون يوما يسعد فيه المجتمع وتستقر أحوال الأسرة ، و لا يبقى هناك مجال لقوانين أو تشريعات ما

زينب محمد حسين